

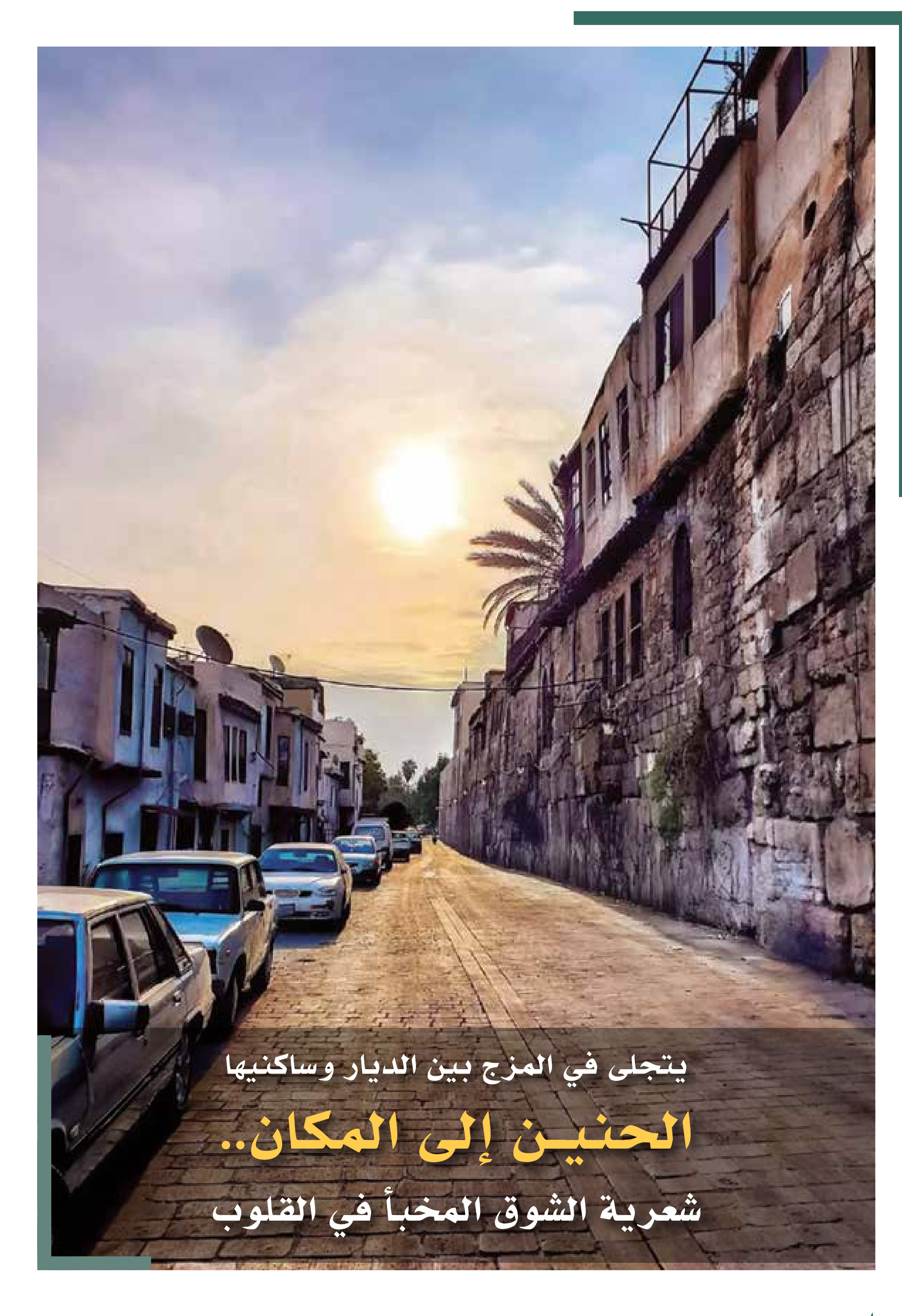
مجلة شهرية تصدر عن دائرة الثقافة بالشارقة

السنة السابعة - العدد (67) - مارس 2025

الحنين إلى المكان
شعرية الشوق المخبأ في القلوب

شمس الدين التلمساني
شاعر مُجيد أسر القلوب

المسرح والشعر العربي
روافد إبداعية وإنسانية عبرت أرض الحضارات



يتجلى في المزج بين الديار وساكنيها

الحنين إلى المكان..

شعرية الشوق المخبأ في القلوب

د. محمود الضبع
مصر

الحنين هو الشوق المخبّأ في القلوب، هو الائتناس بأماكن وأشخاص ولحظات ومشاهد وأحداث حفرت في الروح مكانها، وأشعلت الوجدان فرحًا أو حزنًا، خوفًا أو أمانًا. عندما نَحِنُّ، فإننا نرجع إلى ذكريات لم يستطع الزمان محوها أو الفكاك من أسرها، والخلاص من حضورها حتى اللحظة الراهنة. وعبر التاريخ كان الحنين موضوعًا ثريًا للأدب، بوصفه صيغة من صيغ التعبير عن المشاعر ومتنفّسًا للكشف عن مكنونات النفس نحو رغبتها في العودة إلى الماضي الجميل دائمًا.

ذلك أن الماضي سيظلّ بالنسبة للإنسان هو الألفة، والتوق إليه هو الأمل الذي على الرغم من إدراك حقيقة أنه لن يعود، فإنه يمثل غذاء للروح مازلنا نرغب جميعًا في أن نعود إليه، ونرتشف من نبعه لنروي ظمأ السنين.

وأما في شعرنا العربي، فإن الحنين يفوق ذلك بكثير، وربما تتأسس مرجعيته لكون حياة الشاعر العربي القديم اعتمدت في الأساس على التنقل والترحال، وبخاصة في عصور ما قبل الإسلام، وهو ما أوجد أول أشكال الحنين في الشعر متمثلًا في الوقوف على الأطلال الذي التزمته كل القصائد الطوال في مطالعها «المعلّقات»، وإلّا فما الذي يغري في هذه الأطلال سوى الحنين إلى أيام مضت، ومشاعر كانت متأجّجة ولم يزل نبضها في القلب ساكنا؟ أسس امرؤ القيس، لذلك جميعه في مطلع معلّقته:

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْـرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فالمضمون الأبرز في البيت هو الحنين إلى الحبيب والمنزل، وما البكاء سوى الرغبة التي هاجت عندما مرّ الشاعر وصاحباه بهذه البقعة التي يعطي علامات جغرافية دالّة عليها «سِقْط اللّوى، والدَّخول، وحَوْمل»، وكلها أماكن لها ذكريات يحنّ الشاعر إليها.

ومنذ قالها امرؤ القيس، تداولها الشعراء من بعده، حتى غدت تقليدًا أدبيًا وفنيًا وجماليًا، لا تبدأ معلّقة إلّا بالتأسيس للمكان، عبر هذا التعبير عن الحنين والوقوف على الأطلال، وبكاء من كان يسكن الديار، والشكوى لبعد الفراق، وتبدّل أحوال الزمان، وهو ما نجده عند طَرَفة بن العبد (في ربطه بين ديار خَوْلة ووَشْم مِعصم اليَد)، وكذلك المعنى ذاته عند زهير بن أبي سلمى، والنابغة، والحارث بن حلّزة وغيرهم كثر.

ولكن.. ما الذي يشدّنا إليه في الماضي فيحنّ القلب لاستعادة ذكراه؟

هل هو المكان الذي سكنّاه فسكن القلب، فلما أن بعدت الشقة بيننا وبينه برزت على السطح ذكراه، أم هم الصحب والأحبة والأهل والخلّان، الذين ألفناهم، فلما أن فارقونا أو افترقنا عنهم حنّت إليهم الروح، أم هي الروح التي تحاول عبر الحنين أن تصنع لنا ذاكرة أخرى، غير ذاكرة السمع والبصر والألوان والروائح؟

يبدو أن كل ذلك وأكثر، هو ما تشكلت منه صور الحنين في الشعر العربي، كما التقطتها قرائح الشعراء ورسمت دقائق تفاصيلها بما تحمله من أمل وألم وشجن وأنين وسرور وحبور وانتشاء.


منزل الشاعر العراقي الجواهري

ولعلنا بنظرة فاحصة متأمّلة في مدوّنة الشعر العربي منذ بداياته حتى الآن، يمكن تصنيف أنواع الحنين بين: الحنين إلى الأماكن التي تشكلت فيها الذكريات، والحنين إلى الناس الذين كانوا ورحلوا أو فرّق الزمان بينهم، والحنين إلى الزمان أو العهد الذي مضى (ومنه الحنين إلى الطفولة أو الصّبا أو الشّباب)، والحنين إلى قطعة من الروح كانت فيها المشاعر متأثرة بعوامل متعددة (كأن يحنّ الإنسان إلى روحه عندما كانت مقبلة على الحياة قبل أن يسأمها ويعرض عنها).

وربما لا يسعنا هنا - من بين كل ذلك - سوى الوقوف سريعًا أمام «الحنين إلى المكان» نظرًا لاتساع مساحة التعبير عن كل أشكال الحنين في مدوّنة الشعر العربي، بما يستدعي المجلدات للإحاطة به.

ولعل أول صيغة تعبيرية من صيغ الحنين إلى المكان تتجلّى في المزج بين الديار وساكنيها، فنحن نَحِنُّ إلى المكان الذي كنّا فيه وفارقناه، وترتبط الأماكن في وجداننا بمن أحببناه وألفناه وصحبناه فيها، وعندما نبين عنهم تتأجّج مشاعر الحنين إليهم، وهو ما يعبر عنه ابن حزم، في «طوق الحمامة» قائلًا: «البَيْن يولد الحَنين والاهتياج والتذكّر».

أول أشكال الحنين في الشعر يتمثل في الوقوف على الأطلال

يتبدّى ذلك كثيرًا مع عنترة بن شداد، عندما يمزج بين الحنين إلى المحبوب والحنين إلى منازل المحبوب، فيتوحّدان في صيغة مركبة يتداخل فيها طيف الحبيب المنتظر «عبلة»، مع منازلها التي تحضر في الخيال، مع الطير وغنائه:

وإن نامَ جَفْني كانَ نَومي عُلالَةً
أقولُ لَعَلَّ الطَّيفَ يَأتي يُسَلِّمُ
أَحِنُّ إلى تِلكَ المَنازِلِ كُلَّما
غَدا طائِرٌ في أَيكَةٍ يَتَرَنَّمُ
بَكَيتُ مِنَ البَيْنِ المُشِتِّ وإنَّني
صَبورٌ عَلى طَعنِ القَنا لَو عَلِمتُمُ

إذ يقضّ عليه الحنين مضجعه، ويجعل نومه خفيفًا سريعًا، وما تفتأ صور منازل المحبوب تخايله، وتعود ذكراها كلما ترنّمت الطيور.


منزل أحمد شوقي (كرمة ابن هانئ)

وسوف يتكرر هذا المعنى في الشعر العربي (المزج بين الحنين إلى المحبوب ومنازله)، وبخاصة مع قيس بن الملوّح، في العصر الأموي، الذي يمزج بين حب الديار وساكنيها، بما يؤنسن جدران المنازل ويجعلها حية تحمل المشاعر:

أمُرُّ على الدِّيارِ ديارِ لَيلى
أُقَبِّلُ ذا الجِدارَ وذا الجِدارا
وما حُبُّ الدِّيارِ شَغَفنَ قَلْبي
ولَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارا

وفي العصر العباسي، يعيد وجيه الدولة الحمداني، المعنى والمدخل وطريقة التعبير ذاتها، عندما يساوي بين المنزل والأحباب، يقول:

أَحِنُّ إلى الأَحْبابِ والمَنْزِلِ الرَّحْبِ
وأَقْنَعُ أنْ أُهْدِي السَّلامَ مَعَ الرَّكْبِ
ولَولا طِلابُ العِزِّ ما كُنْتُ راحِلًا
إلى بَلَدِ الأَهْوازِ عَنْ بَلَدِ العُرْبِ
أَحُلُّ بِلادَ الجَدْبِ وهيَ عَزيزَةٌ
وأَهْجُرُ أَرْضَ الخِصْبِ والذُّلُّ في الخِصْبِ

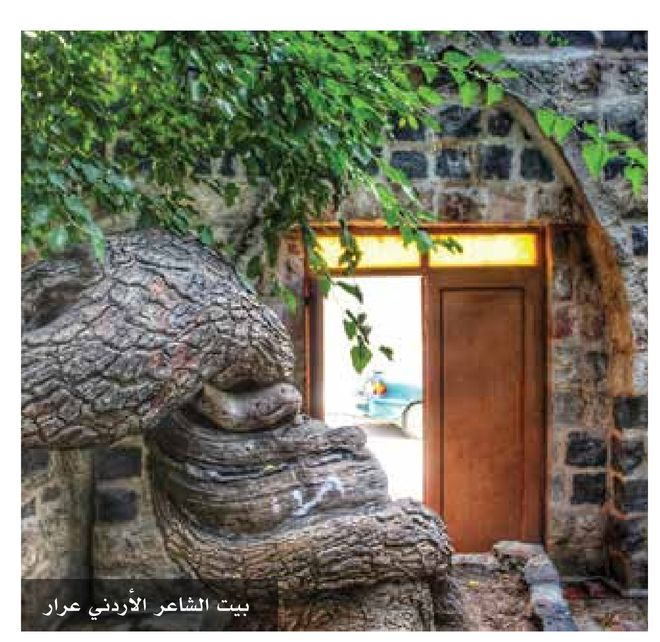
فالمكان/ المنزل المتّسع الأرجاء يمتزج بالأحبّة ساكنيه، وبلاد العرب هي ذاك المنزل الرّحب، الذي ما فارقه الشاعر إلّا لضرورة يقتضيها الواجب وتفرضها الأحوال، طلبًا للعزّة، وهو فراق حتمًا سينتهي ويعود به إلى موطن حنينه وأحبّته.

وقريب من ذاك المعنى، ما سنجده عند الوزير المهلّبي، في العصر العباسي، عندما يعبّر عن حنينه إلى بغداد، وشوقه إليها، ومزجه بين المكان والمحبوب (إلف):

أَحِنُّ إلى بغدادَ شَوْقًا وإنَّما
أَحِنُّ إلى إِلْفٍ بها لِيَ شائقِ
مُقيمٌ بأرضٍ غِبْتُ عنها وبِدعَةً
إقامةَ مَعْشوقٍ ورحلةَ عاشقِ

وهناك علامة بارزة تكشف عن ذاتها بوضوح لقارئ الشعر العربي في شعر الحنين الذي يمزج بين المكان وساكنيه، وهي الحنين إلى «نجد». فلماذا كانت نجد على وجه الخصوص هي المستأثرة بكل هذه القصائد؟

لا تبدأ معلّقة إلا بالتأسيس للمكان عبر التعبير عن الحنين


بيت الشاعر الأردني عرار

هل هو الشغف بالمكان ومفردات الطبيعة فيه، أم تكرار ذكرها مرتبط بحنين «قيس» إليها لكونها موطن ديار محبوبته «ليلى»، أم هو التراكم الشعري الذي ربط بين نجد والحنين في كثير من قصائد الشعراء؟

يبدو أن ذلك، مجتمعًا، كان وراء هذا الحنين، فقيس يرتبط حنينه إلى نجد بليلى، حيث يتوحّد المكان مع المحبوب، ويصير الحنين هو الأمل المرتجى من الحياة، لكنه عندما يبلغ من روحه مبلغ اليأس، ويردّ على الخاطر احتمال عدم إمكانية الرجوع إلى نجد، فإنه يرى ذلك نهاية الحياة ومنتهى الرجاء فيها:

أَحِنُّ إلى نَجْدٍ وإنّي لَآيِسٌ
طَوالَ اللَّيالي مِن قُفولٍ إلى نَجْدِ
وإنْ يَكُ لا لَيلى ولا نَجدُ فاعْتَرِف
بِهَجْرٍ إلى يَومِ القِيامَةِ والوَعْدِ

غير أنه لم تكن نجد وحدها هي موضع الحنين ومقصده، وإنما سنجد في الشعر العربي كثيرًا مما يوسع دائرة المساحة الجغرافية، لتتجاوز نجدًا إلى ما حولها من كل إقليم الحجاز وما يشمله من أماكن دينية لها مكانتها عند عموم المسلمين وبخاصة مدن: مكّة، والمدينة / يثرب، والطائف، والعلا، وجدة، وأبْها، وتبوك.

فهذا قيس بن الملوّح، يعبّر عن حنينه إلى العموم أولًا (أرض الحجاز) ثم الخصوص ثانيًا (خيام نَجد)، ثم خصوص الخصوص لمن سكن هذه الخيام (المَحبوب وعَينَيْه)، ثم المزج مع شعور المحبّ العاشق والراغب في الإقامة والجوار، طلبًا للقرب من المحبوب:

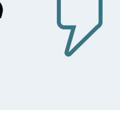

منزل جبران خليل جبران

أحِـنُّ إلـى أرضِ الحِجـازِ وحاجَتي
خيامٌ بنَجْـدٍ دونَها الطَّـرفُ يَقصُرُ
وما نَظَري مِـن نَحْوِ نَجْـدٍ بنافِعي
أجَـلْ لا ولكنّـي عَلـى ذاكَ أنظُـرُ
أفـي كُلِّ يَـومٍ عَبـرَةٌ ثُـمَّ نَظـرَةٌ
لِعَيْنِـكَ يَجْـري ماؤُهـا يَتَحَـدَّرُ
مَتـى يَسـتَريحُ القَلـبُ إمّـا مُجاوِرٌ
حَـزيـنٌ وإمّـا نـازِحٌ يَـتَـذَكَّـرُ

وهناك شكل آخر من أشكال الحنين إلى المكان في الشعر العربي، وهو الحنين إلى موضع، من دون تحديد موقعه الجغرافي، ومنه ما يرد عند علي بن الجهم، في العصر العباسي، عندما يوجه حنينه إلى باب بيت المحبوب، وأهله:

أحِـنُّ إلـى بـابِ الحَبيـبِ وأهْلِـه
وأشْـفِقُ مِـنْ وَجْـدٍ بِـهِ وأهيـمُ
وإنّي لَمَشـغوفٌ مِـنَ الوَجْدِ والهَوى
وشَـوْقي إلى وَجْـهِ الحَبيبِ عَظيمُ
وقَدْ ضاقَـتِ الدُّنْيـا عَلَـيَّ بِرُحْبِها
فَيـا لَيْـتَ مَنْ أهـوى بِـذاكَ عَليمُ

وستستمر هذه الصيغة من صيغ التعبير عن المكان غير المحدد إلى زمن قريب، ومنه ما تردد كثيرًا عن ابن الأبّار البلنسي، في العصر المملوكي، عندما يقول:



ترتبط الأماكن في وجداننا بمن أحببناه وألفناه

نحن نحِنُّ إلى المكان الذي كنا فيه وفارقناه

أحِـنُّ إلـى تُـرْبٍ ثَـوى سَـكَنًا بِـهِ
فألْثُمُـهُ شَـوْقًا لِمَـنْ وُسِّـدَ التُّرْبا
وأُطْبِـقُ أجْفانـي أُحـاوِلُ غَفْـوَةً
فيَأبـى هُناكَ الهُدْبُ أن يصِلَ الهُدْبا
لَعَمْري لَقَـدْ نالَ الـرَّدى مِنِّيَ الذي
أرادَ وخَلّـى الصَّبْـرَ مُقْتَسـمًا نَهْبـا

فالحنين إلى المحبوب يأتي هنا عبر مسلك الحنين إلى التراب الذي دفن تحته المحبوب، فصار تقبيله تقبيلَ المحبوب، ولأن الواقع مرير سيمنع على العقل تقبّل مثل هذه الفكرة، لذا كان اللجوء إلى الخيال هو الأنسب حلًّا، إذ الغفوة ربما تصل بين الخيال ومراد النفس، وعندما تمتنع الجفون بفعل التهاب لظى الحنين يعود الشاعر إلى ساكن التراب، ليكشف عن بعض جوانب هذا الحنين ومبرراته.

وهكذا الأمر كلّما بحثنا في جنبات شعرنا العربي عن الحنين ومفرداته وتجلياته وصوره، فإننا سنجد الكثير مما استحقّ التعبير عنه، ومما أجادت قريحة الشعراء رسمه وتصويره، وإن كان المقام قد توقف هنا أمام إطلالة عن الحنين إلى المكان فقط، فإن الأشكال الأخرى تزخر بكثير من النماذج المعبّرة في هذا الشعر، ومنها الحنين إلى الأشخاص والزمن الغابر والأحوال النفسية التي كانت ومضت، وغيرها من أشكال وتجليات أبدعتها قريحة الشاعر العربي، ولم تزل.